مقالة/ الجزء الأول

نظام التربية والتعليم في الحوزات العلمية الشيعية مشكلات وحلول

كتبه: د. الشيخ عصري الباني

مقدّمة

تعتبر الحوزات العلمية لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام المنبع الذي يستمد منه المذهب روحه وتجدده وبقائه، اذ لولاها لما بقي له من اثر، ولتقاذفته الأديان والمذاهب الانحرافية، فإما أن تقتلعه من أساسه، أو أن تفرغه من محتواه، وقد أنجبت هذه الحوزات الآلاف المؤلفة من العلماء والفضلاء وعلماء الدين، فكان منهم من ترك أثره لا على الشيعة وغيرهم من طوائف المسلمين فحسب، بل كان لهم أثر عالمي، وقدموا للإنسانية أكبر الخدمات وأجلها، والحديث في هذا الموضوع وذكر أسماء هؤلاء وإنجازاتهم حديث ذو شجون سيخرج بمقالتنا هذه عن هدفها، ولكن نظرة بسيطة لما يحدث في عالمنا اليوم، ومقارنتها بالماضي القريب تؤكد ما أشرنا اليه، وصدق الشاعر عندما قال:

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وبعد انتصار الثورة الاسلامية المباركة في سنة ١٩٧٩م كان للحوزة الأثر الكبير في حمايتها ودعمها ورفدها بالطاقات العلمية التي استطاعت ان تحمي هذه الثورة وتذود عنها.

مشكلات النظام التربوي والتعليمي في الحوزة

ولكن هذه الحوزة العلمية تعاني من مشكلات عديدة تؤدي إلى ضعف في عملها وجعلها لا تستطيع التماشي مع المستجدات التي يشهدها عالم التشيع خاصة، والعالم الاسلامي والعالم، فمع وجود التطور العلمي ووسائل الاتصال الحديثة كالإنترنت والمحطات الفضائية والموبايل، وغيرها من الوسائل الحديثة، كان يفترض في الحوزة ان تغير من طريقتها في التصدي لمعالجة هذه المشاكل، وتغيير نظم التعليم والتبليغ فيها، لكي تستطيع أن تواجه هذه التحديات، ولكننا ومع الاسف الشديد لا نجد لهذا الشيء من أثر إلا القليل من الجهود المبعثرة التي لا تتناسب والتحدي الذي يواجهه الاسلام والمسلمون، ونحن في هذه المقالة سنركز على اهم هذه المشكلات، والتي تتمثل في نظام التربية والتعليم في هذه الحوزة.

المشكلة الأولى: حصر الاهتمام بعلمَيْ الفقه والأصول

تتمثل أهم مشكلة في الحوزة العلمية في أنها حوزة تقوم على علمٍ واحد وهو علم الفقه الذي يتفرع منه علم الأصول، مع أن لفظ العلم الوارد في التسمية شامل لجميع أنواع العلوم، فتسميتها من الاساس خاطئة فلابد من تسميتها بحوزة الفقه والاصول، وقد يتصور المطالع لهذه المقالة ان لكاتبها مشكلة مع هذين العلمين العظيمين، وهذا التصور غير صحيح، وانما مشكلتي بل مشكلة اغلب طلبة الحوزة في انحصار الاهتمام بهذين العلمين.

مظاهر هذا الاهتمام

ولكي لا يكون كلامنا من باب إلقاء الكلام على عواهنه نشير إلى بعض الظواهر التي تؤكّد ما ذهبنا إليه:

أ) حرمان الآخرين من الرواتب

أ. في الرواتب التي تعطى للطلبة، فإن الشرط الوحيد فيها هو أن يكون قد أكمل السطح الأول أو الثاني أو الثالث أو من طلبة الخارج، وجميع هذه المراحل في الفقه والأصول، وهذا التخصيص بلا دليل إذ إن علوم آل محمد عليهم السلام غير منحصرة في هذين العلمين حتى نحصر أخذ الحقوق الشرعية بمَنْ يحويهما، وهو ما أشارت إليه العديد من الروايات، نشير إلى بعضها:

الرواية الأولى: رواية إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: (دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله الْمَسْجِدَ فَإِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَطَافُوا بِرَجُلٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ: عَلَّامَةٌ، فَقَالَ: وَمَا الْعَلَّامَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ وَوَقَائِعِهَا وَأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: (ذَاكَ عِلْمٌ لَا يَضُرُّ مَنْ جَهِلَهُ وَلَا يَنْفَعُ مَنْ عَلِمَهُ)، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: (إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ).

فقد أرشدهم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله إلى العلم الذي يضر جهله وينفع تعلمه، ويصح أن يقال لصاحبه (عَلَّامَةٌ)، لوجود حقيقة هذا الاسم، ثم بين العلم الذي يستحق إطلاق اسم العلم عليه وينفع في الدين والدنيا، وقد عدها ثلاثة:.

العلم الأوّل: أشار اليه بقوله عليه السلام: (آيَةٌ مُحْكَمَةٌ)، ويحتمل معنيان:

الأوّل: أي غير منسوخة لأحكام معناها وعدم إزالة حكمها.

الثاني: إنها غير متشابهة لأحكام بيانها بنفسها، وعدم افتقارها في معرفة ما فيها من الحقائق والمعارف والأحكام إلى غيرها، وعدم احتياجها إلى تأويل أو غير مختلف فيها يقال: هذا الشيء محكم إذا لم يكن فيه اختلاف.

وهو إشارة إلى العلم بالمحكمات القرآنية المتعلقة بأصول الدين وفروعه وبالمواعظ والنصائح والعبرة بأحوال الماضين، وإنما خص المحكم بالذكر لأن المنسوخ ليس للعلم بمضمونه كثير نفع، والمختلف فيه لا يعلم الحق منه قطعاً إلا المعصوم، وكذا المتشابه لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

العلم الثاني: ما أشار اليه عليه السلام بقوله: (فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ) ويحتمل هنا عدة معان:

الأوّل: العلم بالواجبات المتوسطة بين الإفراط والتفريط.

الثاني: العلم بالواجبات العادلة أي الباقية غير المنسوخة.

الثالث: العلم بما اتفق عليه المسلمون.

الرابع: أراد العدل في القسمة، أي فريضة معدلة على السهام المذكورة في الكتاب والسنة من غير جور.

الخامس: إنها مستنبطة من الكتاب والسنّة، فتكون هذه الفريضة تعدل بما أخذ عنهما.

وقد أشار بذلك إلى العلم بواجبات الأعمال البدنية والقلبية التي تشمل الأخلاق والمعارف.

العلم الثالث: وهو ما اشار اليه بقوله عليه السلام: (سُنَّةٌ قَائِمَةٌ) السنن: الطريقة. يقال: استقام فلان على سنن واحد، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحرّاها، وقام فلان على الشيء إذا ثبت عليه وتمسك به، والقائمة: الدائمة المستمرة التي العمل بها متصل لا يترك.

ويحتمل فيها معنيان:

الأوّل: إشارة إلى العلم بالأحاديث التي بعضها في التوحيد وما يليق به، وبعضها في المعاد وما يناسبه، وبعضها في الأخلاق وما يتعلق بها، وبعضها في الأحكام وما يعتبر فيها، وبعضها في عادات الرسول والأئمة عليهم السلام.

الثاني: يحتمل أن يكون إشارة إلى العلم بمستحباتها.

ووجه حصر العلم في الثلاثة ظاهر; لأن العلوم النافعة إما متعلقة بأصول العقائد أو بفروعها، والثانية إما متعلقة بأعمال الجوارح، أو بأفعال القلب من محاسن الأخلاق ومقابحها والاعتبار والاتعاظ وجميع ذلك مندرج في الثلاثة المذكورة.

قوله عليه السلام: (وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ) أي زيادة لا خير فيه في الآخرة، سواء كان ممدوحاً في نفسه كعلم الرياضيات والهندسة ونحوهما، أو مذموماً كعلم السحر والشعبذة ونحوهما.

أقول: من الواضح في هذه الرواية أنه صلى الله عليه وآله لم يحصر العلم بالفقه، بل قدم العلوم الأخرى عليه.

الرواية الثانية: صحيحة صفوان الجمال قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله. عزَّ وجلَّ: (وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتيمَيْنِ فِي الْمَدينَةِ وكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما)، فقال: (أما إنه ما كان ذهباً ولا فضة وإنما كان أربع كلمات، لا إله إلا أنا، مَنْ أيقن بالموت لم يضحك سنه، ومَنْ أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومَنْ أيقن بالقدر لم يخْشَ إلا الله).

فقوله عليه السلام: (وإنما كان أربع كلمات) حث بالأولى على التوحيد المطلق والتنزيه عن جميع ما لا يليق به تعالى، وبالثاني على تذكر الموت والاستعداد لما بعده والتحزّن لأحوال البرزخ، وبالثالثة على تذكر أحوال القيامة وأهوالها سيما الحساب الذي لا يعلم مآل أحواله وهو يوجب زوال الفرح والسرور عن القلب، وبالرابعة على اليقين بالقدر والخوف من الله وحده واقتصر بذكر هذه الخصال لأن الاتصاف بها يوجب البلوغ إلى غاية الكمال.

وقوله عليه السلام: (لا إله إلا الله أنا؛ مَنْ أيقن بالموت لم يضحك سنّه). السنّ معروف ويحتمل أن يراد به العمر أي لم يضحك في مدّة عمره لأن الضحك ينشأ من الفرح والسرور والموقن بالموت وشدائده وما بعده من القبر وسؤال منكر ونكير فيه وأهوال البرزخ والقيامة والجنة والنار قلبة محزون مغموم دائماً لعلمه بمآل حاله وما يفعل به في تلك المواطن فينقطع عنه أسباب السرور بالكلية.

قوله عليه السلام: (ومَنْ أيقن بالحساب) عن القليل والكثير (لم يفرح قلبه) لشدّة الحزن والخوف من رجحان سيئاته على حسناته ويوجب ذلك اشتغاله بمحاسبة النفس قبل أن تحاسب.

قوله عليه السلام: (ومَنْ أيقن بالقدر) يحتمل فيه معنيان:

الأوّل: إن المراد به التقدير كما أن المراد بالقضاء الخلق على وفق التقدير.

الثاني: ان المراد به تعلق علم الله سبحانه وإرادته بالكائنات قبل وجودها.

قوله عليه السلام: (لم يَخْشَ إلا الله) ومن علامات تخليه الظاهر والباطن عن الرذائل وتحليتهما بالفضائل وعدم الرجوع في جلب النفع ودفع الضر إلا إلى الله.

أقول: لا نجد في تلك الوصايا للفقه أثر ولا عين، وهذا لا يعني الانتقاص من هذا العلم العظيم، ولكنه إشارة إلى عظمة تلك العلوم التي وردت في الرواية وأهميتها، وهل هناك أعظم من التعبير من قبل ربّ العزة والجلالة عنها بأنها كنز.

الانتقاص في ألقاب الآخرين

ب) في باب الألقاب العلمية فلا يقال: آية الله أو آية الله العظمى أو ملاّ أو فاضل... إلا لمَنْ بلغ درجة الاجتهاد في الفقه، ولا يقال لغيره من المتخصّصين في العلوم الإسلامية الأخرى أيّ من هذه الألقاب، ولو بلغ ما بلغ من التخصُّص في العلوم الأخرى في التفسير والحديث والفلسفة والأخلاق والعرفان والرجال والتاريخ الإسلامي... وغيرها، ولا أدري ما الذي خصَّص هذا العلم بهذه الألقاب، ولم يشمل العلوم الأخرى؟

اعتمادهما معياراً في التدرُّج العلميّ

ج) اعتماد الفقه والأصول كأساس في التدرج العلمي في الحوزة العلمية، واعتبار جميع علوم آل محمد الأخرى دروساً ثانوية. وهو عين المصطلح المتبع في الحوزة هذا إنْ وجدت بالأساس، ولا يوجد أيّ دليل يشير إلى ثانوية هذه العلوم فكلها نزلت على النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، وأمر وأهل بيته الأطهار عليهم السلام بتبليغها من دون التمييز بان هذا أوّليّ وهذا ثانويّ، بل إن بعض الروايات تشير إلى أفضلية العلوم الأخرى، وقد تقدم بعضها ونشير هنا إلى روايتين:

١. رواية يونس بن يعقوب قال: كنتُ عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: كلامك من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ومن عندي، فقال أبو عبد الله: فأنت إذا شريك رسول الله؟ قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله (عزَّ وجلَّ) يخبرك؟ قال: لا، قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلي فقال: يا يونس بن يعقوب هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم ثم قال: يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلمته، قال يونس: فيالها من حسرة، فقلت: جعلت فداك انى سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: ويل لأصحاب الكلام يقولون، هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنما قلت: فويل لهم إن تركوا ما أقول وذهبوا إلى ما يريدون. ثم قال لي: اخرج إلى الباب فانظر مَنْ ترى من المتكلّمين فادخله؟ قال: فأدخلت حمران بن أعين وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحول وكان يحسن الكلام، وأدخلت هشام بن سالم وكان يحسن الكلام، وأدخلت قيس بن الماصر وكان عندي أحسنهم كلاماً، وكان قد تعلم الكلام من عليّ بن الحسين عليه السلام، فلما استقر بنا المجلس. وكان أبو عبد الله عليه السلام قبل الحجّ يستقرّ أياماً في جبلٍ في طرف الحرم في فازة له مضروبة. قال: فأخرج أبو عبد الله رأسه من فازته فإذا هو ببعيرٍ يخب فقال: هشام وربّ الكعبة، قال: فظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل كان شديد المحبّة له. قال: فورد هشام بن الحكم وهو أوّل ما اختطت لحيته وليس فينا إلاّ مَنْ هو أكبر سنّاً منه، قال: فوسّع له أبو عبد الله عليه السلام وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ثم قال: يا حمران كلِّم الرجل، فكلَّمه فظهر عليه حمران، ثم قال: يا طاقي، كلمه فكلَّمه فظهر عليه الأحول، ثم قال: يا هشام بن سالم كلِّمه، فتعارفا، ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام لقيس الماصر: كلِّمه فكلَّمه، فأقبل أبو عبد الله عليه السلام يضحك من كلامهما مما قد أصاب الشامي. فقال للشامي: كلم هذا الغلام. يعنى هشام بن الحكم. فقال: نعم فقال لهشام: يا غلام سلني في امامة هذا، فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال للشامي: يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟ فقال الشامي:

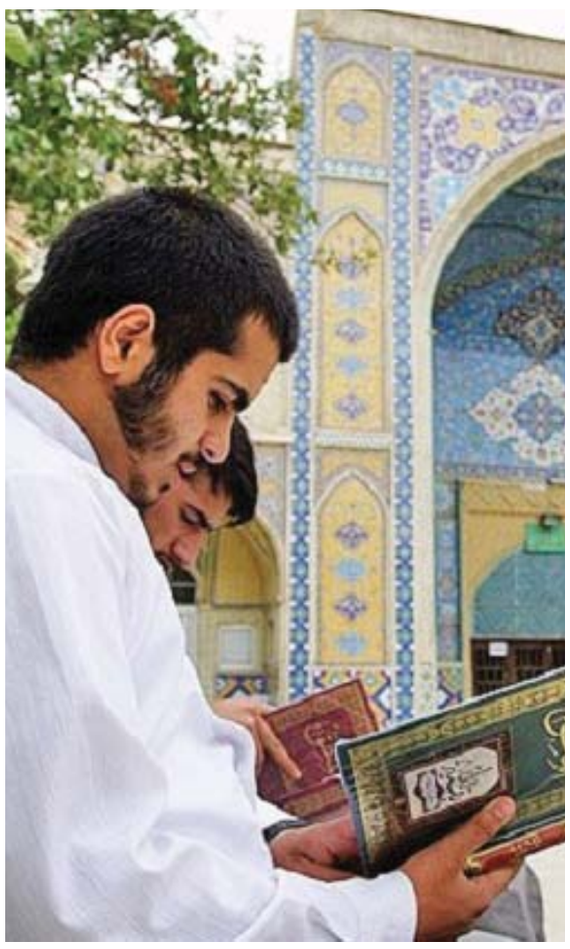

بل ربي انظر لخلقه، قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال، أقام لهم حجةً ودليلاً كي لا يتشتّتوا أو يختلفوا، يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم قال: فمَنْ هو؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله، قال هشام: فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: الكتاب والسنّة، قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟ قال الشامي: نعم، قال: فلم اختلفنا انا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟ قال: فسكت الشامي، فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامي: ما لك لا تتكلَّم؟ قال الشامي: إنْ قلتُ: لم نختلف كذبت، وإن قلتُ: إن الكتاب والسنّة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، وإن قلتُ: قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحقّ فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة إلا ان لي عليه هذه الحجّة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: سله تجده ملياً. فقال الشامي: يا هذا مَنْ أنظر للخلق، أربهم أو أنفسهم؟ فقال هشام: ربّهم أنظر لهم منهم لأنفسهم، فقال الشامي: فهل أقام مَنْ يجمع لهم كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقّهم من باطلهم؟ قال هشام: في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله أو الساعة؟ قال الشامي: في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله والساعة مَنْ؟ فقال هشام: هذا القاعد الذي تشدّ إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء [والأرض] وراثة عن أبٍ عن جدٍّ، قال الشامي: فكيف لي أن أعلم ذلك؟ قال هشام: سله عما بدا لك، قال الشامي، قطعت عذري، فعليّ السؤال. فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا شاميّ، أخبرك كيف كان سفرك؟ وكيف كان طريقك؟ كان كذا وكذا، فأقبل الشامي يقول: صدقت، أسلمت لله الساعة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون، فقال الشامي: صدقت فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وأنك وصي الأوصياء. ثمّ التفت أبو عبد الله عليه السلام إلى حمران، فقال: تجري الكلام على الأثر فتصيب، والتفت إلى هشام بن سالم، فقال: تريد الأثر ولا تعرفه، ثمّ التفت إلى الأحول، فقال: قيّاس روّاغ، تكسر باطلاً بباطل، الاّ ان باطلك أظهر، ثم التفت إلى قيس بن الماصر، فقال: تتكلَّم وأقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبعد ما تكون منه، تمزج الحق مع الباطل، وقليل الحقّ يكفي عن كثير الباطل، أنت والأحول قفّازان حاذقان، قال يونس: فظننتُ والله أنه يقول لهشام قريباً ممّا قال لهما، ثم قال: يا هشام لا تكاد تقع، تلوي رجليك إذا همَمْتَ بالأرض طرْتَ. مثلك فليكلِّم الناس، فاتَّقِ الزلّة، والشفاعة من ورائها، إنْ شاء الله.

وهنا نشير إلى عدّة أمور لها دلالة وردت في الرواية:

١. تحسُّر يونس بن يعقوب انه لم يتعلم علم الكلام، وهذا يشير إلى الأهمية الكبرى التي يتمتع بها هذا العلم عند الأئمة وأصحابهم.

٢. أمر الامام للراوي بالخروج لإيجاد بعض أصحابه المتكلمين، وأنه وجد ثلاثة منهم وأشار إلى أنهم كانوا يحسنون الكلام، مما يشير إلى أن أصحاب الائمة لم يكونوا يدرسون علماً واحداً بل كانوا ذوي تخصُّصات متعدّدة، وعدّ هذا التخصص من مميزاتهم.

٣. قول الإمام الصادق عليه السلام عن هشام بن الحكم بانه: (ناصرنا بيده ولسانه)، تشير إلى أن التخصُّص في هذه العلوم فيه نصرة للمذهب، وعليه فهل يجوز أن نقطع عن هؤلاء الأنصار والحماة للمذهب من الحقوق الشرعية وحصرها في الطلبة الدارسين للفقه والأصول؟!

٤. قول الإمام الصادق عليه السلام: (مثلك فليكلِّم الناس)، فيسأل الامام: كيف يمكن أن ننتج أشخاصاً كهشام ليكلِّموا الناس وفي الحوزة التي تنتمي إليك لا يشجّعون مثل هذه العلوم، بل لو تخصَّص أحدهم فيها من دون الفقه والأصول فسيكون نتيجته الطرد والموت جوعاً.

٢. رواية يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم حمران بن أعين، ومحمد بن النعمان، وهشام بن سالم، والطيّار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شابّ فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا هشام ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ فقال هشام: يا بن رسول الله، إني أجلّك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك، فقال أبو عبد الله: إذا أمرتكم بشيءٍ فافعلوا. قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك عليّ فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متّزر بها من صوف، وشملة مرتد بها والناس يسألونه، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثمّ قعدت في آخر القوم على ركبتي ثم قلت: أيها العالم إني رجلٌ غريب تأذن لي في مسألة؟ فقال لي: نعم، فقلت له: ألك عين؟ فقال يا بنيّ أيّ شيء هذا من السؤال؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت: هكذا مسألتي، فقال: يا بنيّ سَلْ وإنْ كانت مسألتك حمقاء، قلتُ: أجِبْني فيه، قال لي سَلْ، قلتُ: ألك عين؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص، قلت: فلك أنف؟ قال: نعم قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة، قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم، قلت: فلك أذن؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصوت، قلت: ألك قلب؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أميّز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح والحواسّ، قلت: أوليس في هذه الجوارح غنىً عن القلب؟ فقال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحةٌ سليمة، قال: يا بنيّ، إن الجوارح إذا شكَّتْ في شيءٍ شمته أو رأته أو ذاقته أو سمعته ردّته إلى القلب، فيستيقن اليقين ويبطل الشكّ، قال هشام: فقلت له: فإنما أقام الله القلب لشكّ الجوارح؟ قال: نعم، قلت: لا بُدَّ من القلب وإلّا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلت له: يا أبا مروان، فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح ويتيقَّن به ما شكّ فيه ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكّك؟! قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً. ثمّ التفت إليّ، فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت: لا، قال: أمن جلسائه؟ قلت: لا، قال: فمن أين أنت؟ قال: قلت: من أهل الكوفة قال: فأنت إذاً هو، ثمّ ضمّني إليه، وأقعدني في مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتّى قمتُ، قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام وقال: يا هشام، مَنْ علمك هذا؟ قلت: شيءٌ أخذته منك وألّفته، فقال: هذا والله مكتوبٌ في صحف إبراهيم وموسى.

هنا لا بُدَّ من الاشارة إلى نكتتين وردت في هذه الرواية الشريفة:

الأولى: إن الإمام عليه السلام كان يدرس المسائل الكلامية بشكل معمق، وبشكل ممنهج، بحيث أنتج هشام وأمثال هشام الذين وردت أسماؤهم في رواية سابقة، وهو ما أشار اليه هشام بقوله: (شيءٌ أخذته منك وألّفته).

الثانية: قول الإمام عليه السلام: (هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى)، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكن أن تكون صحف إبراهيم وموسى من الدروس الثانوية في الحوزة؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

إنتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني والأخير في العدد المستقبل

المصدر: موقع نصوص معاصرة